أنت الحـــق

للأستاذ محمود شلبى

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد ، أنت قيام السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ... اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ، ما قدمت وما أخرت ، وأسررت وأعلنت .. أنت إلهى . لا إله إلا أنت . (مسلم)

قال النووى : (أنت نور السماوات والأرض) قال العلماء معناه منورهما وخالق نورهما .

(أنت قيام السماوات والأرض) قال ابن عباس الذى لا يزول ، وقال غيره هو القائم على كل شىء ، ومعناه مدبر أمر خلقه .

(أنت الحق) قال العلماء : الحق فى أسمائه سبحانه وتعالى معناه المتحقق وجوده ، وكل شىء صح وجوده وتحقق فهو حق، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق . . . أى كله متحقق لا شك فيه .

(اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى) إلى آخره . معنى أسلمت استسلمت وأنقدت لأمرك ونهيك . وبك آمنت أى صدقت بك وبكل ما أخبرت وأمرت ونهيت . وإليك أنبت أى أطعت ورجعت إلى عبادتك ، أى أقبلت عليها ، وقيل معناه : رجعت إليك فى تدبيرى أى فوضت إليك ..

وبك خاصمت أى بمـــا أعطيتنى من البراهين والقوة خاصمت من عاند فيك وكفر بك ، وقمعته بالحجة وبالسيف وإليك حاكمت أى كل من جحد الحق حاكمته إليك وجعلتك الحاكم بينى وبينه لا غيرك بما كانت تحاكم إليه الجاهلية وغيرهم من صنم وكاهن ونار وشيطان وغيرها ، فلا أرضى إلا بحكمك ولا أعتمد غيره .

ومعنى سؤاله صلى الله عليه وسلم المغفرة مع أنه مغفور له أنه يسأل ذلك تواضعا وخضوعا وإشفاقا وإجلالا ، وليقتدى به فى أصل الدعاء والخضوع وحسن التضرع فى هذا الدعاء المعين .

وفى هذا الحديث وغيره مواظبته صلى الله عليه وسلم فى الليل على الذكر والدعاء والاعتراف لله تعالى بحقوقه والإقرار بصدقه ووعده ووعيده والبعث والجنة والنار وغير ذلك انتهى .

* * *

إنى أرى فى هذا الحديث إشعاعا عجيبا .

أرى فيه أنه ليس من قول البشر وليس فى طاقة بشر . فإن الكلام يدل على صاحبه ، ويكشف عن خبيئة نفسه فأى كلام هذا ؟ .

إنه شىء لا أستطيع أن أعبر عنه .!! شىء عال غاية العلو ، مشرق غاية الإشراق ، ليس نوره من نور هذه الدنيا ، ولا علوه بشىء يستطاع الوصول إليه .

إنها النبوة تتكلم : —

مع من تتكلم ؟ .

مع الله !!!

وفى أى الأوقات ؟ ! .

فى خير وقت . . فى السحر ... عندما تهجع الجفون ، ويسكن الليل ، وتجمد الحركة ... وتخشع الأصوات للرحمن ... فى ذلك السكون الجميل ... ينبعث صلى الله عليه وسلم ، ويتسلل من فراشه ... لأنه على ميعاد ...

من هذا الذى واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

إنه الرحمن ... حيث قال له « ... قم الليل إلا قليلا ... »

فصار ذلك أمراً ، بل فرضا عليه صلى الله عليه وسلم ...

فهل كان ذلك فرضا ، فيه ثقل الفريضة على النفس ؟ .

كلا ... بل هو ميعاد ضربه الله لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ... ليس شيئا ثقيلا ثقل الفرائض ، ولا

شاقا مشقة الواجب ، وإنما هو موعد ضربه الرحمن لحبيبه ، فانشرح له صدر الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وطرب له فؤاده ، وقرت به عينه ...

ومن يومها .. من يوم أن ضرب الله له الليل موعدا ، وهو صلى عليه وسلم يحضر إلى ربه فى نفس الميعاد ، لم يتخلف عنه ليلة واحدة حتى لحق بالرفيق الأعلى . . عجبا ! ! عشرون عاما أو تزيد والنبى صلى الله عليه وسلم يواظب على قيام الليل .. لم تفلت منه ليلة واحدة ، خلال هذه المدة الطويلة ! !

إنه الحب ... الحب الحق .. حب الرحمن لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه سبحانه وتعالى .

حب صادق أشد من الصدق نفسه.

فالمحب هو الله ، والحبيب هو رسول الله .. ولا أحد أصدق من الله حبا ، ولا أحد أصدق من الرسول حبا ! .

ووقع الاختيار على محمد ...

من ؟ .

من الله جل وعلا ...

وتفضل الله تعالى عليه فأحبه ... فامتلأ القلب النبوى بحبه سبحانه ....

فهل يطيق النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك بعدا عن الله ... عن المحبوب ؟؟

كلا ... فكان السحر .. كان الليل موعد اللقاء بين الله وحبيبه .

من أجل ذلك نرى النبى صلى الله عليه وسلم ، ينام قليلا ثم يقوم إلى صلاته ، وينام ثم يقوم ، لا يهدأ فى نومه هدوء الناس فى نومها ... وإنما ينبعث مشتاقا إلى ربه . تواقا إلى اللقاء .

فلم يك قيام الليل كفريضة على النبى صلى الله عليه وسلم بالمعنى الذى يفهمه الناس من الفرائض .. وإنما كان شيئا يتمناه صلى الله عليه وسلم ، ويحبه أشد الحب ، ويحرص عليه حرصا شديداً . شيئا يجد فيه راحة نفسه ، وقرة عينه ، ولذة أنسه ...

ولست أدرى أى شىء يستطيع ملء فؤاده صلى الله عليه وسلم غير لقاء الله ؟

أى شىء يستطيع ملء هذا الفؤاد الذى هو أوسع من السماء والأرض غير حب الله ؟ ؟

وكان اللقاء اليومى ... كل ليلة .. كل سحر ... عندما ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا .. وانبعث صلى الله عليه وسلم فى صفاء الليل يناجى ربه . . . يناجى حبيبه . . . فماذا قال ؟

« اللهم لك الحمد » . . إحساس

عميق بنعمة الله ، وشعور دافق بالرغبة فى شكر الله.. فتحرك لسانه صلى الله عليه وسلم ، أول ما تحرك بتسجيل ذلك الإحساس . . . اللهم لك الحمد . . . أشكرك يارباه أن آتيتنى تلك النعمة الكبرى .. نعمة النبوة العظمى .

ثم ماذا قال بعـــد ذلك صلى الله عليه وسلم ؟

« أنت نور السماوات والأرض » أنت ؟ ... تأمل ما فى تلك المناجاة من فطرة وبساطة ؟ . أنت ؟ ... أنت وحدك منور السماوات والأرض ...

لولاك ما استنار شىء ، ولاظلم كل شىء .

« ولك الحمد » ... مرة أخرى أحمدك .. إننى لو مكثت الليالى ذوات العدد أحمدك ، لم أوفك حقك من الحمد يارب ، إن أحدا لا يستطيع حمدك .

« أنت قيام السماوات والأرض » أنت ... أنت . . مدبر كل شىء فى السماوات والأرض ... بك يقوم كل شىء ، بك حياة كل شىء . .

« ولك الحمد » ... مرة ثالثة ... أحمدك ... إن نعمك تغمر الخلائق جميعاً ...

« أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن » أنت سيد السماوات والأرض ، وسيد من فيهن ، أنت الرب الحق ولا أحد سواك .

وعند ذلك ... كان قلبه صلى الله عليه وسلم يكاد يطير من الفرح ... وكانت روحه صلى الله عليه وسلم ، تسبح فى نور الحقيقة ... وتكشف لها أسرار الخليقة ... فيزداد صلى الله عليه وسلم أنسا ، ويزداد صلى الله عليه وسلم من حبيبه قربا ... فيعلم علم اليقين أن ؟؟ . .

« أنت الحق » ... اى والله يارب أنت الحق وحدك ... أنت المتحقق وجوده حقا وصدقا ..

فهل هناك حقائق أخرى بعد تلك الحقيقة الكبرى ؟ .

نعم ... هناك فروع لذلك الأصل وكل مايصدر عن الحق حق ...

« ووعدك الحق » ... نعم ربى .. ما وعدت عبادك سوف يتحقق كله .. سوف يقع كله ، ولكن الناس لايعلمون .

« وقولك الحق ... إى والله ... إن من نفس إلا وهى سوف تلقى ربها ذلك حق ... سوف ألتقى بك يارب .

« والجنة حق » .. وسوف يتحقق للمؤمنين بك ماوعدتهم ، فيروا بأعينهم أن الجنة كائن حق . « والنار حق » .. وسوف يتحقق للكافرين ما أوعدتهم

سوف يعاينون جهنم ... وسوف يدخلونها ... وسوف يعلمون أن النار لامرية فيها ولامراء . «والساعة حق» إى وربى ... إن الساعة بأهوالها ... يوم تمور السماء مورا ... يوم ينفخ فى الصور ... يوم يقوم الناس لرب العالمين ... يوم يعرضون عليك صفا صفا ، يوم يموج بعضهم يومئذ فى بعض ... يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... كل ذلك ربى حق ... سوف يقع وسوف يكون ...

وهنا ... ازدادت روحه صلى الله عليه وسلم نورا على نور ، وسبحت فى آفاق أعلى وأعلى ... وازداد من ربه قربا ثم قربا ... هنالك تجلت له الحقائق تموج فى بعضها موجا ... وانكشف له حجاب بعد حجاب ، فإذا به صلى الله عليه وسلم يقول ...

« اللهم لك أسلمت » ... أى والله استسلمت لك طوعا .. لأننى لاأستطيع إلا أن أستسلم ... لا أستطيع بعد أن أريتنى ما أريتنى . « وبك آمنت » صدقت بك .. وكيف لا أصدق بخالقى وخالق كل شىء ؟ لا أستطيع .. لا أستطيع إلا أن أصدق بك ... إننى أعاين جهاراً لأسرارا عظمتك وجبروتك ورحمتك ...

« وعليك توكلت » ... كيف أتوكل على شىء سواك ... كيف لا أتوكل على الحى القيوم الذى لا يموت؟

« وإليك أنبت » ... أفوض إليك كل أمورى .. لأنك خير من أفوض إليه أمورى ...

« وبك خاصمت » ... هل كان يستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاصم الناس جميعا وحده ، لولا أن الله معه ؟ . كلا ... ولكن بما أعطاه من حجة وقوة ، استطاع أن يخاصم الناس فى الله ، وأن يقيم عليهم جميعا الحجة ...

وأعلن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لربه ... اعترافا بفضله عليه ... وتسجيلا لنعمته إليه .

« وإليك حاكمت » لا أرضى إلا بحكمك ... ولا أعتمد غيره ... لأنك خير الحاكمين ...

فماذا كان سؤاله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ؟ .

هل طلب الدنيا هل طلب الملك ، هل طلب الرياسة ، هل طلب شيئا يفنى ؟ ؟ .

أنظر ماذا طلب من ربه ...

« فاغفرلى ما قدمت وأخرت » .

محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا ذنب له يطلب المغفرة !!! .

أكان هـذا عن تواضع أم عن حقيقة ؟ .

هو عن تواضع إن شئت ، وعن حقيقة إن شئت .

أما أنه عن تواضع ، فذلك ما ينتظر من عبد الله فى مقام كهذا .

وأما أنه عن حقيقة فذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم ، يعلم أنه لم يذنب حقا ... ولكنه يعلم إلى جانب ذلك أنه مهما جاهد فى الله ، فهو لم يوف الله حقه ... فكان منه طلب المغفرة ... اللهم اغفرلى التقصير — ولا تقصير — ، اغفرلى عدم القيام بحقك ... إنها النبوة فى حالة إحساس بفضل الله عليها ، ولقد كان فضل الله عليه عظيما .

« وأسررت وأعلنت » ... أنت تعلم سرى وعلانيتى ... فاغفرلى ما كان من باطنى أو من ظاهرى ...

فماذا كان ختام ذلك التطواف ؟

« أنت إلهى ... لا إله إلا أنت » أعلنها صادقة خالصة ... بينى وبينك .

* * *

وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم ليلا ... لم يكن نواما ولكن كان قواما ...

وكان قيامه لقاء مع حبيبه الأعلى يناجيه ويناغيه . وربه تبارك وتعالى يتفضل عليه بما شاء من الرحمات والتجليات والايحاءات .

وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالليل — وكل دعائه خير — أسمى وأعلى ما عرفت البشرية من المناجاة الربانية ...

تتموج أدعياته صلى الله عليه وسلم صاعدة إلى ربها ، أنور من النور ، وأسمى من السمو ...

ليس فيها الا الثناء على الله ... والاعتراف بفضل الله ... والإقرار بالعبودية لله ...

كل أولئك ... يفوح كالعطر الأقدس ، من صدره الشريف ، وهو يئز أزيز المرجل ، من البكاء من خشية الله .

وإن أجمل وأجل دعاء ، لهو دعاء المحب الباكى ..؟